شهريات

بقلم رئيس التحرير

١ . ازمة الابداع ايضا

« تواجه حركة التأليف العربية أزمة في الابداع . هل يعود ذلك الى الاوضاع السياسية أم الى اغتراب المبدع عن واقعه ؟ كيف تفسر هذه المشكلة وكيف تسعى الى تجاوزها؟ »

هذا السؤال طرحته عليّ الصفحة الادبية في جريدة « الانوار » البيروتية ، ضمن استفتاء شارك فيه عدد من الادباء ، واحب ان اعيد نشر جوابي عليه هنا :

نقر اولا ان هناك ازمة ابداع في حركة التأليف العربية. فقليلة بل نادرة هي المؤلفات العربية التي استطاعت في السنوات الاخيرة ان تحدث تموجا هاما على سطح الخلق الادبي الراكد . ونعتقد ان لذلك عدة اسباب ، بعضها مرتبط باوضاع المجتمع الذي يعيش فيه الاديب العربي، وبعضها الآخر متصل باوضاع الاديب نفسه . واكتفي هنا بتحليل اهم سببين في الميدانين :

فالازمات السياسية التي يعانيها العرب ، وخاصة بعد هزيمة حزيران ، تضيق آفاق الانطلاق التي ينشدها الاديب ليخلق ويبدع . وتلك الهزيمة بالذات ، اذا لم تكن محرضا على خوض المعارك لمحوها والقضاء عليها ، تصبح مادة ايحاء عقيمة . والواقع ان كثيرا من الآثار الشعرية والروائية والقصصية استوحت مادتها من هذه الهزيمة، ولكن ماذا بعد ؟ وحركة المقاومة نفسها ، كانت موضوع استلهام ادبي وفني . ولكنها حين ضعفت ثم تمزقت ، اصبحت بابا شبه مسدود امام الادباء .

وهكذا اصبح كثير من المبدعين يؤثرون الصمت على انتاج آثار لا تجد تبريراتها في معطيات الواقع العربي . ان الاسى والتشاؤم واليأس ليست دائما مادة صالحة لوحي الادباء . وبالرغم من ايماننا الشخصي بان تردّي الاوضاع لا يلزم عنه بالضرورة صمت الصوت الادبي ، فان ذلك لا يمكن الا ان يترك آثارا عميقة في حركة الابداع .

غير انه لا بد ان نشير هنا الى عائق آخر متصل بهذه الموانع ، هو عائق الكبت والارهاب والضغط على حرية الاديب . ان السلطات العربية اجمالا تخاف حرية الفكر ، فتلجأ الى الرقابة والمنع والمصادرة ، واذا نتج عن ذلك خوف الاديب من ان تنتقل المصادرة الى شخصه بحيث يخشى الاعتقال ، كان هذا مبررا معقولا لايثار الصمت . وهكذا تساعد السلطة على كبت الابداع وتعميق الازمة.

واذا اضفنا الى ذلك الرقابة الاجتماعية التي تستمد جذورها من التقاليد البالية والمحرمات والتي تنتصب فوق فكر الاديب كالشبح المرعب ، ادركنا احد الاسباب التي تجعله يكسر قلمه ويطوي اوراقه .

اما وضع الاديب نفسه ، من حيث متطلبات المعيشة والتزام المسؤولية العائلية ، فله تأثير جذري على طاقته الابداعية . وليسمح لي القارىء هنا ، تدليلا على ذلك ، ان ادلي بشهادتي الشخصية ، وقد تكون كذلك شهادة عليّ . ان كثيرين يتساءلون عن سر قلة انتاجي ، او حتى انعدامه في السنوات الاخيرة. وانا اجيب بان من اسباب ذلك ، وان لم تكن الاسباب كلها ، حرصي على ان أوفر لعائلتي وسائل العيش الشريف التي لا تستطيع رواية كل عامين او ثلاثة او مجموعة قصصية كل خمسة اعوام ان تؤمنها . ولذلك فلا بد لي من التماس نشاطات اخرى تسد عندي هذا العجز . ومن هذه النشاطات اللجوء الى الترجمات او التفرغ لعمل اكاديمي (كان عندي تأليف قاموس « المنهل » بالاشتراك مع الدكتور جبور عبد النور) .

وكل ذلك يسرق دون شك وقت الابداع والخلق، او التهيؤ لهما . ولما كانت الدولة في لبنان غائبة غيابا كليا عن دنيا الثقافة ، فانها بالتالي لا يمكن ان تساعد الادباء على تخفيف ازمتهم وتأمين وسائل التفرغ لهم لينصرفوا الى ما خلقوا له .

يبقى السعي الى تجاوز هذه الازمة ، واحسب انفي كلامي اشارات غير مباشرة الى ذلك . ولكن مما لا شك فيه ان وسائل العلاج ستكون مقصرة تقصيرا فادحا اذا لم يكن الاديب يحس بانه صاحب رسالة ، وان الشعلة التي تتأجج في اعماقه جدير بها ان تدفعه الى الاطاحة بكل المعوقات والموانع التي تحول دون ابداعه. فاذا كان حقا صاحب رسالة تحدى سلطة القمع والارهاب بصراحته وجرأته في التعبير عن حريته ، وتجاوز اوضاعه المعيشية بالتضحية والصمود .

ويجب أن نعترف بأننا محتاجون الى ادباء انبياء .

٢ . صدقي اسماعيل

منذ عامين تقريبا ، دعيت الى حضور جلسة للمكتب الدائم لكتّاب آسيا وافريقيا عقدت في موسكو . وبعد ان تدارس اعضاء المكتب جدول الاعمال ، وكان حافلا ذلك اليوم ، ابلغوا ان ثمة مؤتمرا كبيرا للكتّاب السوفيات

كان منعقدا آنذاك في قاعة اخرى بالعاصمة السوفياتية ، فتوجه بعضنا ليأخذ فكرة عن مناقشات الكتّاب في شؤون الادب والفن .

وفي تلك القاعة ، رأيت المرحوم صدقي اسماعيل جالسا في احد المقاعد الامامية ، والسماعتان على اذنيه يتابع الخطب والمناقشات ، ويسجل على دفتره ملاحظاته. وقد حال التعب الذي كنت اصبته في جلسة المكتب الدائم دون ان استطيع متابعة المناقشات ، فانسحبت الى الفندق لآخذ قسطا من الراحة . وحين عدت بعد زهاء ساعتين وجدت صدقي اسماعيل ما يزال جالسا في مقعده يسمع ويتابع ويسجل .

وفي المساء ، شاهدت صدقي جالسا في ركن من الفندق ، منكبا على اوراقه يكتب . وقد حدثني عما سمعه من خطب ومناقشات بتفصيل دقيق يدل على انه تابع الحديث كله مترجما الى اللغة الفرنسية التي كان يحسنها ، وقد كان يسجل آنذاك ملخصا له تمهيدا لنقله الى مجلة « الموقف الادبي » التي كان يراس تحريرها .

كان الانطباع الذي يوحيه صدقي اسماعيل لكل من يعرفه انه نموذج للمثقف العربي الجاد الذي يؤمن بان معالجة التخلف الذي يعانيه المثقف العربي لا تتم الا باحراق المراحل في التهام المعرفة التي فاتته منذ عهد الانحطاط واستدراك القصور بالاقبال على الثقافة الاجنبية. ولم اجلس الى صدقي اسماعيل يوما الا وبهرني بسعة اطلاعه ورحابة افقه وغنى ثقافته . وقد كانت هذه الثقافة تتميز بالاتساع الافقي والعمق العمودي . ولعله بين المثقفين العرب على رأس المطلعين اوسع اطلاع على ثمرات الفكر الاجنبي في شتى الميادين : في الشعر والرواية والمسرح والنقد ، وبخاصة النقد ، ومن يقرأ مقالاته ودراساته يعجب لمتابعته لمختلف تيارات الفكر الغربي ومدارسه النقدية على تنويعها وغناها .

ولكن ما يعادل ذلك أهمية ان صدقي اسماعيل مرتبط اشد الارتباط بالتراث العربي ، متغلغل فيه ، متذوق لكل ابداعاته ، على غير تعصب ولا تزمت . بل هو من اكثر المفكرين العرب تحررا من العقد التراثية لتقييم التراث على حقيقته ، واستخلاص الجوهر فيه من العرض ، وتوظيفه لخلق فكر عربي جديد . وهو حين يعالج قضية من قضايا الادب ، ينم في طريقة تفكيره عن حضور مستمر في وجدانه للحديث والقديم كليهما ، للاجنبي والعربي ، للماضي والحاضر . وهذا التلاقح الدائم هو الذي يضفي على آثاره المكتوبة غنى الاستطراد والذبذبة الذي ينزع احيانا الى الغموض ويسقط احيانا اخرى في الابهام ، ولكنه يظل دائما علامة واضحة على خصب التفاعل بين الثقافات قديمها وحديثها في ذهن هذا المثقف العربي النموذج .

ولعل اهم سمتين في انتاج صدقي اسماعيل وعيه لرسالة الادب الاجتماعية ، وايمانه المطلق بالحرية . فهو في السمة الاولى حريص ابدا على ان يشد كل ابداع في الفكر والادب العربي الحديث الى خلفيته الاجتماعية وتصاديه مع هموم الجماهير في بحثها عن صيغ جديدة لمجتمع متطور يخلق مستوى للحياة جديرا بالامة وبالعصر الذي تعيش فيه . من هنا كان انتاجه الخلقي في الرواية والمسرحية والقصة القصيرة ، على محدوديته، ادب التزام بمشاغل المجتمع الحقيقية ، ومن هنا كانت معظم كتاباته تشي بالاهتمام الكبير بالمضمون الاجتماعي وبما تتمخض به حياة الشعب من التغيرات الفكرية . كما كان في دراساته وآثاره النقدية حريصا على مد صلات الفكر والنتاج باسباب المجتمع الذي يعكس الهام الاديب، تأثرا به وانصبابا فيه .

واما السمة الثانية ، التي هي ايمانه المطلق بالحرية، فقد كانت دعوة متصلة الى تحرر الفكر العربي وتحريره من كل قيود التزمت والرقابة والتضييق وتخليصه من معوقات الموروث واطلاقه في كل سماء منفتحة على قضايا الانسان ضمن الروح الثورية التي تفرضها المرحلة الحاضرة للامة العربية . وهذه الحرية الثورية محور اساسي تدور حوله افكار الراحل واهداف كتاباته كلها. وهي جديرة حقا بان تفرد لها دراسات ضافية ، ولا سيما في روايته « العصاة » وقصته التاريخية المسرحة «ايام سلمون» . كما ان مقالاته السياسية والفكرية والادبية التي شارك فيها بالدعوة للفكرة العربية ،وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره ، خليقة بدراسة هامة تضع هذا المفكر الناضج المخلص في موضعه من دعاة القومية العربية الاوائل .

* * *

وبعد ، فقد تذكرت حين سمعت من اذاعة دمشق ، منذ اسابيع ، نعي صدقي اسماعيل ، تذكرت قصته القصيرة « الدولاب » . قصة تلك الام الفقيرة التي كانت تهتم ، في ذلك العهد من عهود الاضطهاد في سوريا، بشيئين اثنين : بابنها وبدولاب عتيق لغزل القطن تستخدمه في كوخها في اوقات الفراغ والوحدة . وقد قبض جنود السلطة على ابنها يوما بتهمة القاء القنابل على الثكنة، ثم قبضوا عليها لانها شتمت السلطة . وحين سألتهم متى يفرجون عنها قالوا : عندما تعترف بمخبأ ابنها . وكان ان اجابتهم : انها سوف تقضي اذن مدة طويلة في السجن . وكل ما طلبته بعد ذلك ، بلهجة مفعمة بالحنان، هو ان يأتوها من كوخها بالدولاب ، لانها « لا تستطيع ان تقضي تلك الايام من دون عمل » ومنذ ان تحرك الدولاب في السجن ، كانت المرأة تسأل بين يوم واخر بلهجة هادئة : « هل قبضوا على ابنها ؟ » .

لقد انهى صدقي اسماعيل قصته هذه بعبارة قصيرة :« كانوا يتحدثون في المدينة كيف ان دولابا عتيقا

اغرى المرأة العجوز بان تريد البقاء في السجن الى الابد ».

ان هذه الاقصوصة الرائعة التي ترمز الى النضال والمقاومة والتضحية صورة صادقة لحياة صدقي اسماعيل التي كانت عملا دائبا وجهدا مستمرا وصمودا لا يكل ودورانا لا يتوقف في الاضطلاع برسالته ومسؤوليته القومية والفكرية .

وكما اخذت تلك المرأة دولابها معها الى السجن، اتصور الآن صدقي اسماعيل وقد اخذ هو ايضا دولابه معه الى مثواه الاخير ، اكرم الله والادب مثواه (١).

٣ . قصة مؤلف وكتاب ..

صدرت هذا الشهر عن دار الآداب الترجمة الكاملة للرواية الشهيرة « العرّاب » The Godfather التي ضربت ارقاما قياسية في التوزيع لم يبلغها كتاب منذ عشرات السنين وترجمت منذ صدورها في العام الماضي الى ما يزيد عن عشرين لغة . وقد استخرج منها هذا العام فيلم كبير يعرض منذ شهور في كثير من دور السينما في العالم .

وقد قرات لمؤلفها الايطالي الاصل « ماريو بوزو » حديثا طريفا يتحدث فيه عن « مغامرة العرّاب » ككتاب وكفيلم . واستوقفني في هذا الحديث الذي نشرته مجلة « باري ماتش » اخيرا امران هامان : تأثير المصادفة على قدر الكاتب، وضغط المجتمع عليه .

يروي ماريو بوزو ان « العرّاب » بقيت طوال اكثر من سنة على لائحة « اروج الكتب » في جريدة نيويورك تايمس ، وكذلك ظلت الكتاب رقم ١ في الرواج في بريطانيا وفرنسا والمانيا وسواها ، وارتفع مبيعها الى احد عشر مليون نسخة .. والى ما قبل ثلاثة اشهر زادت عائدات فيلم « العرّاب » عن ١٢٠ مليون دولار !

ولكن من هو ماريو بوزو هذا الذي لم يكن يعرفه احد من القراء، فاصبح فجأة اشهر من همنغواي وسارتر؟

يقول المؤلف انه كان قد اصدر روايتين : « ميدان التنافس الاسود » (١٩٥٥) و« السائح المحظوظ »(١٩٦٥) فلم يلتفت اليهما احد ، ولم يصب من حقوقه كمؤلف اكثر من ستة الاف دولار ، بينما اصبح اليوم ، بعد « العرّاب » ، من اغنى المؤلفين في العالم ! كان منذ سنوات لا يجد ما ينفقه على امور معاشه ومعاش عائلته ، وهو الان لا يعرف كيف ينفق المال الذي يتدفق عليه كالسيل!

ويروي بوزو انه ، بعد فشل كتابيه الاولين على صعيد الرواج ، بالرغم من اعتزازه بهما كاثرين ادبيين ، قرر ان يفتش عن موضوع يدر عليه المال ، فانصرف مدة من الزمن لدراسة تاريخ المافيا منذ نشأتها في صقلية حتى استقرارها في الولايات المتحدة حيث لا تزال ذا تأثير كبير على الحياة الاجتماعية كلها . وبالرغم من انه لم يلتق برجل واحد من رجال عصابات المافيا ولم يدخل عالم اللصوصية والسلب . فانه يصور في « العرّاب » هذا الوسط اروع تصوير واغناه بموهبة روائية مدهشة . ولم يصدق هو ، ولم يصدق احد من افراد اسرته الفقيرة ، ان دار « فاوسيت » للنشر قد اشترت حقوق اصدار « العرّاب » في كتاب الجيب بمبلغ ٤١٠،٠٠٠ دولار !

ولكن ما مصير الاديب الفقير حين يصبح غنيا ؟ كان ماريو بوزو يريد ان يضمن له ولاسرته حياة شريفة ليستطيع ان ينصرف الى انتاج الآثار التي يريدها ويرضى عنها ، دون غايات اخرى لا ترتبط ببنية الادب ذاته ، فماذا حدث له بعد ذلك ؟

يقول بوزو :« كنت قد وعدت زوجتي ، وانا بعد فقير ، باستئجار ستوديو خاص لي حين اصيب النجاح. والآن ، وقد حدث ذلك ، كان عليّ ان افي بوعدي . وقمت بعدة محاولات ، فاستأجرت عدة استوديوهات انيقة جدا ، وسافرت الى لندن ، وجربت الريفييرا الفرنسية وبورتوريكو ولاس فيغاس ، وتعاقدت مع سكرتيرات واشتريت آلات تسجيل . ولكن الوحي لم يات . انني بحاجة الى وجود الاولاد وصراخهم ومنازعاتهم. واني بحاجة ان تأتي زوجتي فتقطع عليّ عملي لترينني الستائر الجديدة .. » .

واذن ، فهل قدر على الاديب ان يكون فقيرا لينزل عليه الوحي ؟ اتكون هناك صلة سببية بين الفقر والفنى من جهة ، وبين الالهام من جهة اخرى ؟

ان تاريخ الادب حافل بأمثال الادباء الذين كان العوز وملاحقة اسباب العيش يحولان دون انصرافهم الى الانتاج ، ولكنه لا يفتقر ، ولا سيما في العصر الحديث، لامثال الادباء المبدعين الذين لم يحل بلوغهم الغنى والبحبوحة دون استمرارهم في الخلق . وهذا ما يدعو الى الاعتقاد بان الموهبة الحقيقية لا يمكن ان تموت او تذبل ، وان كانت تمر احيانا بفترات ركود واغفاء .

اما الامر الثاني الذي يستوقف في حديث ماريو بوزو ، فهو اشارته الى ضغط المجتمع على حرية الكاتب. وهو يقول في ذلك ، بعد حديثه عن موافقته على استخراج فيلم من الرواية :

« ان فيلم « العرّاب » حين دخل بين ايدي المنتجين والمخرجين ، لم يعد هو رواية « العرّاب » ، بل لم يكن حتى فيلم السناريو الذي وضعته . وقد فوجئت ذات لحظة بتدخل « الرابطة الايطالية الاميركية للحقوق المدنية » التي وعدها مدير الانتاج بان يحذف من السناريو

---

(١) كلمة القيت في حفلة التأبين التي اقيمت في الشهر الماضي على مدرج جامعة دمشق .

كل الاشارات المتعلقة بالمافيا ، وبان يحفظ « الشرف الايطالي ! » من اجل ذلك تركت الفيلم بصفتي مستشارا، لاني رأيت انه لم يكن فيلمي ، واني لم اكن المعلم ،وانهم لم يكونوا يصغون اليّ ..»

وماريو بوزو على حق . ان جميع الذين حضروا الفيلم ، وقد حضرته اخيرا في بيروت ، وكانوا قد قرأوا الرواية ، يجدون بونا شاسعا بين الفيلم والرواية ، بل انني اعتبر الفيلم تشويها حقيقيا للرواية التي تقصد الى فضح المجتمع الاميركي في تحلله المتصل اتصالا وثيقا ببنيته الداخلية ، في حين ان الفيلم مقصور على سرد قصة عائلات المافيا ، وان كان يحاول الايحاء ببعض الجوانب الانسانية في هذه العائلات . اما من الناحية الفنية والروائية ، فقد قتل الفيلم كل التفاصيل التي تخلق ذلك « الاثير » النابض الذي تخضل به سطور الرواية واحداثها وايحاءاتها .

ان ماريو بوزو يقرّ بان منتجي الفيلم قد شوّهوا الرواية ، بل هو لا يتردد بالقول : « ساءني كذلك ان فرنسيس كابولا ، مخرج الفيلم ، قال في مقابلة صحفية انه كان يخرج « العرّاب » ليحصل على « المال الضروري ليخرج الافلام التي يرغب حقا باخراجها ». لقد احزنني ان اراه على قدر من الذكاء يتيح له ان يتصرف هذا التصرف وهو بعد في الثالثة والثلاثين من عمره ، بينما توجب عليّ ان انتظر خمسة واربعين عاما لافهم ان عليّ ان اكتب « العرّاب » لاكون حرا في كتابة الروايات التي كنت ارغب حقا في كتابتها .»

فلماذا خضع ماريو بوزو لضغط رجال الاعمال السينمائيين فأقر تشويه روايته ؟ اما كان باستطاعته ان يرفض منح حق استغلالها في فيلم يشوهها ؟

مهما يكن من امر ، فقد انهى المؤلف مقاله بقوله :

« على اي حال ، بعد ظهور فيلم « العرّاب » ، اقررت واقعا واضحا : هو اني لست بعد روائيا ، وانما اصبحت شريكا في عملية « العرّاب » التجارية ! »

ولعل اعترافه هذا بسقوطه يحمل بعض الامل في ان تستردّ موهبته الروائية صفاءها واشعاعها .

٤ . «الآداب» مرة اخرى ..

بهذا العدد ، تنهي « الآداب » عامها العشرين .

وبالرغم من ان الاقبال على قراءة المجلة لم ينقص بعد رفع ثمن العدد وقيمة الاشتراك هذا العام ، فان« الآداب » تواجه بعض المصاعب لعدة اسباب :

منها ان المجلة تمنع بتاتا من دخول بعض البلدان العربية ، وتصادر بعض اعدادها في بلدان عربية اخرى ،

بيان من ادارة « الآداب »

تعلن ادارة مجلة « الآداب » انها ، ابتداء من العدد القادم ، العدد الاول من عام ١٩٧٣ ، قد عدلت قيمة اشتراكاتها السنوية كما يلي :

لبنان : ٢٥ ليرة لبنانية

البلاد العربية : خمسة جنيهات استرلينية او اثنا عشر دولارا

اوروبا وافريقيا : ستة جنيهات استرلينية او خمسة عشر دولارا

اميركا : خمسة وعشرون دولارا

المؤسسات الرسمية والمكتبات العامة : خمسون ليرة لبنانية

ثمن النسخة العادية : ليرتان لبنانيتان

كما اشرت الى ذلك في عدد سابق .

ومنها ان مطالب شركة التوزيع ، تبعا لمطالب المكتبات ، تزداد عاما بعد عام بالنسبة لعمولة التوزيع.

ومنها ان نفقات البريد قد زادت كذلك في الاشهر الاخيرة .

ومنها ان نفقات التحرير قد زادت هي ايضا .

وبالمقابل ، فان الاشتراكات في المجلة قد نقصت ، وان كان شراؤها من المكتبات لم ينقص ، كما نوهت منذ قليل ، ولم يزدد اقبال المعلنين على النشر فيها ، مع العلم بان الاعلان قد اصبح موردا رئيسيا للصحف والمجلات .

ولما كان التحويل من معظم البلاد العربية يخضع لقيود شديدة تصل غالب الاحيان الى حدّ حظره ، فان مطالبة القراء بالاشتراك مباشرة في المجلة امر لا جدوى فيه.

تجاه هذا كله ، تجد ادارة « الآداب » نفسها مضطرة الى احد امرين : اما انقاص صفحات المجلة او رفع ثمن النسخة منها وقيمة الاشتراك فيها .

ولما كنا نعتبر الامر الاول تراجعا يتناقض وتطوّر الصحافة ، فقد آثرنا ان نختار ، ابتداء من العدد القادم الذي تبدأ به السنة الحادية والعشرون ، الامر الثاني الذي سيتطلب من قراء «الآداب» مشاركتها في بعض التضحية، آملين ان يجدوا فيها بعض العوض .

سهيل ادريس